الفينيقيون وجيرانهم

بقلم الامير موريس شهاب
امين دار الآثار اللبنانية

٢

فينيقية ومصر

ان اقدم ما وصل الينا من الآثار الدالّة على قدم العلاقات بين مصر وبيبلوس قطعة اناء نُقش عليها اسم الفرعون خاسخموي . وقد كان مالكاً على مصر نحو السنة ٣٢٠٠ ق . م .

ولنا من العصر نفسه اسطوانة وجدت في بيبلوس ، كان يستعملها خاتماً رجلٌ كتب عليها ، بالحروف الهيروغليفية ، انه محبوب الاله - الشمس را ، والالهة ايزيس - حاطور ، والاله حاي - طو . وقد برهن السيد موتّه ان حاي - طو هذا إن هو الّا الاله الذي دُعي في ما بعد باسم أدونيس .

كان ادونيس الهاً شاباً وجيلاً ، وصيّاداً ماهراً . فعلقت به ربة بيبلوس . وكان ان توغّل يوماً في احدى الغابات فطارد خنزيراً برياً حتى جرحه ، فارتدّ هذا على عقبه وانقضّ على ادونيس فقتله . فسال دم الاله على ارض الغابة ، وفي الغد شاهد الناس شقائق النعمان نمت بكثرة حتى غطّت ذاك المكان . على ان قسماً من هذا الدم سال حتى وصل الى نهر ابراهيم فاصطبغت مياهه بلونه . وما زالت حتى يومنا هذا ، تسيل حمراء في ايام الربيع ، فتصبغ قسماً من مياه البحر حول مصبّها . وكان الاقدمون يجتمعون حول النهر ، في مثل ذاك الوقت ، فيبكون «الاله القتيل» ؛ حتى اذا استعادت المياه لونها الطبيعي ، واكتست الارض كساءها الاخضر ، عادت الى الطبيعة نضرتها

السابقة ، ورجع ادونيس الى الحياة . عند ذاك كان يبتدئ موسم الطواف من بيلوس الى افقا ، فتسير الجماهير ونهرَ ابراهيم ، وقد اهاب بهـا داعي الفرح فاندفعت تُصعد اهازيج السرور منصرفة الى ما حطّ من الملاهي وما شانَ من الملذات التي استحكمت مدة طويلة في ذاك الشعب حتى ان النصرانية لم تقوَ على ازالتها الّا بصعوبة.

على ان هذه العبادة للاله ادونيس لا تظهر قوية الازدهـار الّا في عصر متأخر . اما في ما سبق من الاعصر فيظهر ان العبـادة الاكثر انتشاراً كانت منصرفة الى حبيبته الالهية عشترت ، الهة الولادة ، التي كان يدعوها الفينيقيون بَعلة جبيل ، اي ربة جبيل.

وقـد بلغ تأثر الجبيليين بالفنّ المصري مبلغاً بعيداً حتى انهم كانوا يمثلون ربّتهم على هيئة الالهـة ايزيس المصرية جالسةً على عرش ، حاملةً باحدى يديها صولجان الملك ، وعلى رأسها دائرة الشـس بين قرني حاطور . وهي تظهر بهذه الصورة ليس فقط على الاسطوانة التي ذكرتها ، بل في صورة محفورة منذ السنة الالفين ق. م. تمثل ملك بيبلوس راكعاً امام الالهة.

هـذا وان في اعلى رقيم يهوملك الراقي الى العصر الفارسي صورة الملك مكتسياً على الزي الفارسي ، وامامه بعلة بيبلوس ولم تفارق زيّها المصري . فيظهر من هذا الدوام في تصويرها على الهيئة المصرية ، برغم انتقال السلطة العليا من ايدي المصريين ، كم كان بعيداً تأثير هذا الشعب الـذي بسط نفوذه على العالم بمدنيته لا بسيفه.

اقتـدى جميع كبار الفراعنة في الالف الثالث ق. م. بالفرعون القـديم خاسخموي ، فـملأوا هـيكل بيبلوس بالآنية المأخوذة من حجـار الشطوط (*albâtre*) التي كانوا يملأونها ، على ما نظنّ ، ببعض الهدايا الثمينة . ويمكن زائر متحفنا ان يشاهد في خزائنه قطعاً عديدة من هذه الآنيـة ، حافظةً اسماء مشاهير الفراعنـة ككفرين وميـيرينوس (منكاورى) بانيَي اهرام الجيزة ، وتيتي ، وغيره ، ولاسيا الفاتح الاعظم بيبي الثاني الذي قدّم للهيكل عـدة

آنية ، مع خوان للتقدمة ، وكثير من التماثيل الصغيرة من الخزف منها ما يمثل انثى قردٍ وقد ضمّت صغيرها الى صدرها بحنوّ . وهو تمثال يظهر آية في الفنّ دقةً وحقيقة تمثيل . حتى ان احذق فنّاني العصر قد لا يفوق في ذلك فنّان القرن الخامس والعشرين ق. م.

ولكنّ هناك امراً في غاية الغرابة ، لا ندري هل سببه عدم التوفق في اجراء الحفريات ام الانقلابات السياسية في ذاك العصر ، وهو اننا لا نرى في الالف الثالث ق. م. ذكر ملك واحد من الوطنيين ، بل نرى كل الهدايا مقدّمة رأساً الى الآلهة. فهل يجيز لنا هذا الاغفال ان نستنتج فنقول ان بيبلوس كانت في الالف الثالث ق. م. تحت حكم مصر المباشر ؟ هو ما لا يمكن ان نرجحه حتى اليوم على رغم المظاهر المتعدّدة.

ومهما يكن من الامر فان النصوص ، حتى الفنيقية منها ، ظلّت الى ما وراء ذاك الزمن تكتب بالحروف الهيروغليفية . بيد أنه قد يكون بامكاننا ان نعتبر راقيةً الى هذا العصر تلك الكتابة الغريبة التي اكتشفت السنة الماضية في بيبلوس . وهي تحتوي على احد عشر سطراً بابجدية مؤلفة من صور مختصرة تشابه الهيروغليف ولكن من نوع غريب لم يُعرف قبل اليوم ، ولم يتمكن احد حتى الآن من قراءة كتابتها. فهل تكون أثراً من ذاك العصر ، ومظهراً لطور الانتقال من الخط الهيروغليفي الى الابجدية الفنيقية ؟ اننا لا نرى الفرضية مستحيلة...

الثورة المصرية وتأثيرها في بيبلوس

في اواخر الالف الثالث ق. م. شبّت في مصر ثورة هائلة قام بها الخدم والمماليك ، فاسقطوا اسيادهم من امراء وفراعنة ، واستبدّوا مكانهم بالملك . فكان من جراء ذلك مذابح وبلايا دامت نحو قرنين ساد فيهما الخراب والفوضى في جميع انحاء مصر ، حتى طمع الاجانب في وادي النيل واستولوا على قسم منه.

وكان من طبع المصريين الرغبة في التحبيب والرثاء ، فوجد ادباؤهم في تلك

الحوادث موضوعات عديدة ابكتهم فانصرفوا اليها نادبين معدّدين . وقد حفظت لنا الآثار قول احد كتبتهم في وصف ما ابداه المماليك الحديثو النعمة من الصلف والاستبداد فقال : «ان الاقرع الذي كان يُنفر منه لما كان عليه من القراد ، اصبح يدلك صلعته بالزيوت والطيب ويفرض على العقائل الشريفات احتمال مداعباته المزعجة.»

وقال كاتب آخر من العصر نفسه : «لم تعد المراكب تبحر الى بيلوس فتستورد الخشب لبناياتنا وانواع الصمغ والقطران لتحنيط موتانا.» فكان انقطاع هذه العلاقات ثقيل الوطأة على مصر.

اما في بيلوس فقد كشفت الحفريات عن جدران الهيكل الراقية الى الالف الثالث ق. م. فاذا بها متكلسة ، وفي ارجاء الهيكل كثير من القمح المحروق. واذًا فان ثورة مصر اضعفت نفوذ الفراعنة في بيلوس ، فقام سكانها ثائرين على المصريين.

الّا ان هذه الثورة المحلية لم تلحق ضرراً بالمدينة ، بل كان الامر على عكس ذلك ، فاننا نرى بيلوس بعد هذا العصر المضطرب على غاية ما يمكن الازدهار.

والى هذا العصر ، او الى ما قبله قليلًا ، يرتقي السور الفخم الظاهر تحت سور الصليبيين . وهو مبني بحجارة دون ملاط يبلغ عرضه من ثلاثة الى اربعة امتار ، وتسنده من الداخل دكاكٌ مرتّبة يبلغ ضلعها المترين . اما من الخارج فتعلوه طبقة من الطين لا ريب في انها كانت مبلّطة الظاهر حتى يصعب تسلّقها. وهذا السور من اقدم ما يُعرف من نوعه في سورية وفلسطين . ولا عجب فقد خلّدت التوراة حذق الجبليين في نحت الحجارة.

وبعد ان اتمّ الفينيقيون بناء السور ضحّوا ، حسب عاداتهم ، ببعض اطفالهم ، ووضعوا هياكلهم في جرار كبيرة مكّنوها في اسفل السور وقد كانت هذه العادة الوحشية بجزيرة على الفينيقيين على الرغم من ذم الاقدمين لها ، ولاسيا التوراة . وذلك ان الفينيقيين كانوا ، كسائر البحريين ، كثيري العبادة ، راسخي العقيدة ، شديدي التمسك بالتقاليد ، حتى انهم لم يتخلّصوا من تلك

العادة الذميمة ألّا في عصر متأخر ، يساعدنا التاريخ على تقديره اذ يروي لنا انه لما حاصر الاسكندر الكبير مدينة صور ، كان فيها كثير من اهالي قرطاجة فنصحوا لسكانها ان يقوموا ببعض الضحايا البشرية ترضيةً للالهة كما جرت عادة سلفائهم ، فأبى هؤلاء وذموا عادة جدودهم الوحشيّة. وعليه يمكننا الاستنتاج ان تلك العادة استؤصلت بين القرن التاسع وهو تاريخ بناء قرطاجة والقرن الرابع وهو تاريخ خراب صور.

معبد آثار بيبلوس

وكانت بيبلوس المتجدّدة بحاجة الى هيكل فبُني بعد ان وُضع تحت بلاطه ثلاث جرار كبيرة مُلئت بالهدايا والنذور . وقد شاء القدر ان يحصل متحف بيروت على هذه الجرار ، فاذا فيها نحو ١٥٠ تمثالًا صغيراً من البرونز المموّه بالذهب . على ان تلك الصبغة الذهبية اضمحلّت لرقّتها ولم يبقَ ألّا آثار منها علقت في مطاوي بعض التماثيل . واكثر ما تمثّله الآلهةَ ، والنساء ، والابطال مسلّحين بالخناجر ، او بالرماح ، او بالقسيّ . ويمكن ان نقسم هذه التماثيل المصنوعة كلها في فنيقية الى فرعين مميّزين صادرين عن طريقتين للفنّ مختلفتين : امّا الاولى فتمتّ الى الفنّ المصري بصلة قوية ، وامّا الثانية فتتبع الطريقة الاسيوية لاسيا في ما خصّ لبس اللبّادة المبرونقة . ومهما يكن من خاصة فنيّة في ذلك ، فاننا نرى جميع الرجال مرسلي اللحى ، بارزي الانوف ، ظاهرين ، في قسمات وجوههم ، بمظهر المثال الوطني الاسيوي الذي يقترب كثيراً من المثال السوري الشمالي ، او من مثال بلاد الحثيين . وان واحداً من تلك الشخوص الصغيرة يمثّل عجلًا مغشى بالذهب في غاية ما يكون من اتمام الصناعة.

وبعد ذلك وُضع جرّة رابعة تحت بلاط الهيكل فاكتشفها السيد مونته واخرج منها ومن حولها كثيراً من التماثيل الصغيرة ايضاً وفيها شخوص القردة ، والارانب ، والاسود ، او الاسطوانات التي كانت تُستعمل اختاماً كما جرت العادة في سورية الشمالية . وكان بين هذه الآثار حَلي من الذهب مستدير الشكل نقشت فيه الاهلّة وحُفرت النجوم رمزًا الى الالهة عشترت (انظر الرسم ١). وقد وُجد في هيكل شوشنك قطعتان شبيهتان بهذا الحلي ،

الا انها اقلّ منه قيمة فنية . مما يدلّ على انه كان لبيلوس علاقات مع بلدان آسية الوسطى منذ القرن السابع عشر ق. م. فكانت تمثل في ذاك العصر العريق الدور الذي تمثله بيروت اليوم ، اي انها كانت مرفأ الشرق.

ومما وُجد في هيكل بيباوس ايضاً سلسلة شخوص من البرونز تمثل عدة حيوانات كالاسود والثيران وما اليها ، وتدلّ بالاجمال على ملاحظة دقيقة وفنّ رشيق.

ويظهر ان هيئة بعض الآلهة الممثلة مصرية محضة الّا ان هذه التماثيل مصنوعة في فنيقية دون شك . ولقد كان الفنيقيون كالمصريين يتبغون في التعبير عن صفة مُمثلهم باشارة بسيطة تُلخص اخلاقه كلها . ومن هذا القبيل تمثال الاله فتاح ، وهو ولد صغير مُثل يمصّ احدى اصابعه.

على انه ما وُجد من الآثار في هيكل بيباوس لا يكاد يُذكر الى جنب ما اكتشف في القبور الملكية من الكنوز الفنية الراقية الى العصر نفسه.

كان ملوك بيلوس ، في هذا العصر ، اي في القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق. م. يُدفنون بين السور والبحر . فكان القادمون من البحارة الى بيلوس يرون الآثار المقامة على قبورهم قبل ان يصلوا الى المدينة.

وقد شاءت الصدف ان يكتشف مقرّ هذه المقبرة الملكية على الصورة التالية :

ان امواج ذاك الخليج الصغير تهيج في فصل الشتاء فتضرب آساس الشاطئ حتى تخلخلها . فكان انها احتفرت قسماً كبيراً من ترابه سنة ١٩٢٠ ، فانهار احد المرتفعات ، وظهر تحته غرفة مربّعة . وعلى اثر ذلك مرّت احدى نساء جبيل امام ذاك الانهيار ، فدفعها الفضول الى معرفة ما في الغرفة . ولشدّ ما كان اندهالها اذ رأت فوق الغرفة ناووساً عظيماً من حجر واحد ، وعلى الجدران بعض رقائق من الذهب تلمع تحت وقع شعاع من الشمس داخل من احد الخروق. ولقد كان اندهالها اعظم اذ شاهدت في زوايا الغرفة عدة جرار موقفة ومسندة بترتيب . فلم يكن من شك في انها ملأى بالكنوز ، حتى لم يعد للسكينة من صبر على فحصها ، فاسرعت وحملت احداها على كتفها وخرجت كالمجنونة

راكضة في اسواق البلدة الصامتة منادية باعلى صوتها : كنز ا كنز ا على انها سرعان ما افاقت من نشوتها ، اذ اوقفها افراد الجندرمة فاخذوا منها الجرَّة ، وحرسوا باب الغرفة ، وابرقوا الى بيروت.

فاجريت الحفريات بكل دقة ، واذا بالقبر مبني على الطريقة المصرية ، وهو يحتوي على طابق سفلي مؤلف من بئر مربعة المدخل يبلغ عمقها نحو التسعة الامتار ويبلغ ضلع مدخلها نحو الاربعة ، منقورة في الحجر الصلد . وفي اسفلها ممشى واسع يوصل الى الضريح. وفيه كانوا يضعون الميت في ناووسه ، ومعه كل ما كان يجب من الآنية والحلي . اما الناووس الذي يهمنا امره فكان خالياً من هيكل صاحبه ، فلم يُرَ فيه الّا ما دفن مع الميت من الحلي والاشياء الثمينة . من ذلك قطعة من الذهب تمثل نسراً باسطاً جناحيه (الرسم ٢) وُجدت محل عنق الميت في الناووس ، وحذاء من الفضة كان محل القدمين . والى جانب اليد ، وُجد صولجان من البرونز ، على هيئة المنجل ، وفيه نقش على هيئة رؤوس الافاعي . ثم اناء من الفضة لا يكاد يختلف في شيء عمّا نستعمله في عصرنا لسكب الشاي وما شاكل (الرسم ٣) . هذا ومن بعض آنية اخرى وُجدت في هذا القبر يظهر من شكلها وطريقة شغلها انها من عمل جزر بحر ايجه ، يمكن ان نستنتج انه كان بين بيبلوس وهذه الجزر المزدهرة بالعمران اذ ذاك ، علاقات وثيقة ، ولا غرو فالشعبان من مشهوري البحارة في الكون.

(للبحث صلة)